ومع منغصات الحياة التي لا تنتهي والتي تأتي من حيث لا ندري ولا نحتسب، فإن بذرتها الطيبة التي رعتها قد جاء الوقت غير المناسب لاقتلاعها بطريقة همجية وغير مناسبة بسبب الضمير الذي يكون في سبات عميق ثم يستفيق على حين غفلة في الزمان والمكان الخاطئين.

فوجئت ذات يوم برجل استفاق ضميره الذي كان مطمورا ليعذبها بدق باب بيتها الهادئ الوديع بعدما اهتدى لبيتها عقب تحريات بدأها من أحداث تلك الليلة التي ظنت أن أحدا لم يلمحها فيها وأن السر كان سجنه قلبها وقلب زوجها الذي ودعها إلى مرقده الأخير منذ سنوات قليلة، كان هذا الرجل صاحب القلب غير الساكن يبحث داخل أسوار بيتها الساكِن عن ابن كان مأواه منذ قرابة ربع قرن حاوية قمامة، وكي يبرئ ضميره من ثقل ذلك الماضي العفن أتى ليلقي به في مستقبل ابنه وقلب من رعته..

الأرض ليست لمن يخدمها

" لا شيء أقسى على الروح من رائحة الأحلام وهي تتبخر"

محمود درويش

كما يخلف الرسام الذوق الفني لأبنائه ويلقنهم تناغَم الألوان وانسجام الأشياء، فإن الطبيب أيضا لا يفتأ يعلم أولاده أسماء الأدوية وبعض استعمالاتها وكذا مدى جدواها وفعاليتها، والمعلم بالمثل يقضي حياته بين الكتاب والقرطاس فلا يكون من أولاده سوى تعلقهم بما ألفوا عليه أباهم في أغلب الأحيان، والأمر نفسه بالنسبة لهذا الفلاح الذي خلف له والده بالإضافة إلى قطعة ارض يرثها حبا سرمديا يربطه بها، وكانت هذه القطعة الأرضية بالنسبة له الكنز الذي يختزل في قيمته العالية ماضيه وحاضره.

عمل ما بوسعه ليحافظ هو الآخر على هذا الكنز ليكون المستقبل الذي سوف يورثه لأولاده فيرثون حبها وتستمر عجلة الإرث المعشوق في الدوران.

كانت رزقه فمنها يطعم زوجته وأولاده ومن الخيرات التي تهبها له والتي يبيعها يكسوهم ويسد فجوة احتياجاتهم، أما عشقه لها فلم يكن لأنها كانت ولا تزال تسد رمق مطالبه ومطالب عائلته فحسب وإنما لأشياء غير مرئية لغيره أو ربما يرونها لكنها تبدو بسيطة جدا بالنسبة لهم.

كانت بالنسبة له بلسم الحياة، فالجلوس تحت ظلال أشجارها الوارفة صيفا للأكل من خيراتها يغني نفسه عن جل أيام الاصطياف ورحلات الاستجمام الرائجة لدى أبناء جيله، يتنقل بشغف بين خضرواتها ليقطف ويغسل من ماء البئر التي تتربع وسطها، يأكل بنهم وشغف خضرواتها التي تهديها له بسخاء هذه الأرض المفروشة بحبه وحب أجداده، جلسة الأكل هذه أحب إلى قلبه من مائدة مصطفة بأجود أنواع المأكولات وأبهى الأطباق المرصوفة، حتى القيلولة التي يأخذها عقب كل وجبة أكل أو بعدما يحس بالتعب ينخر جسده الذي وهبه لها هي إلى قلبه أحب من النوم على سرير مخملي مع أنه لم يجرب في حياته الطاولة المصطفة بأبهى الأطباق وأشهاها ولا السرير المخملي ومع ذلك ما يفتأ يردد هذه العبارات أمام أولاده وكل معارفه - الذين لم يستطيعوا أبدا حساب مقدار الحب الذي يكنه لهذه الأرض - وأمام زوجته التي تبتسم في إشارة للموافقة القطعية لتزيد بذلك من سروره وغبطته.

هذه الأرض حتى لو بخلت عليه أو تمنعت عن إعطائه منتوجا بقدر تعبه عليها أو حبه لها وتعلقه بها على الأقل غير أنه يظل يختلق لها أعذارا كعاشق لا يرى في معشوقته ذرة نقص...

عشقه وولعه بالأرض تحكيه التفاصيل الدقيقة لنمو أشجاره وزرعه لحظة بلحظة.

_ سنتظلل تحت هذه الشجرة بعد خمس سنوات وسوف تغطينا شتاءً أو في أي وقت تنزل فيه الأمطار دون سابق إنذار، أعدكِ بذلك أنتِ فقط اطلبي من الله أن يمدَّ في عمرينا لنرى ذلك اليوم عن كثب...

-إن شاء الله، فليمد الله في عمرك وتغرس أكثر وأكثر.

_ أتعلمين أن محاسن غرس شجرة أزلية فرسولنا الكريم يقول: *"ما من مسلم يغرس غرسا إلا كان ما أكل منه له صدقة ، و ما....*

وقبل أن يكمل تتولى هي "زوجته" إكمال الحديث عنه بصفة آلية: *"... وما سرق منه له صدقة، و ما أكل السبع منه فهو له صدقة، وما أكلت الطير فهو له صدقة، و لا يرزؤه أحد إلا كان له صدقة"* حديث شريف

ثم تميل برأسها عليه حتى يكاد يلامس كتفه وهي تستطرد مبتسمة: نعم أعلم، وبالنسبة للحديث فقد حفظته عن ظهر قلب بعد عقود من الزمن قضيتها معك ومع ضرتي التي بتّ أحبها لأجلك... الأرض.

في كل فصل هو مرأى وحديث لكل الأعين، يركض من بائع فسائل إلى آخر يتحرى عن آخر ما جادت به التهجينات ويبحث عن أجود ما يمكن أن يليق بأرضه المدللة...

لينطلق الاهتمام المنقطع النظير مع وضع الشجيرة في حوض الغرس الذي يملؤه خصيصا من تربة أرضه وكلما ظهرت الحشائش والنباتات الضارة يلعنها دون انقطاع كما لا ينقطع عن توبيخ نفسه بعد ذلك إذ كيف استطاعت مغافلته والظهور على السطح رغم تفانيه في مراقبتها وحرصه الشديد الذي لا يترك لها مجالا للتفكير بالظهور أساسا ... فكانت نشوته تتضاعف إذا لم يكن هناك ظرف طبيعي أو غير ذلك يعرقل نمو ما يغرس...

اليوم زاد طول الشجرة التي تقع في الجهة السفلى المقابلة للوادي، البارحة فقط تلك الشجرة التي على يمين الطريق انبتت، لقد بدأت فاكهتها تظهر للعيان وتنافس الأشجار الأكبر منها بسنوات، "كيف للمرء أن يحظى بجنة كالتي وهبني إياها الله ثم يهجرها؟" يتساءل بينه وبين

نفسه ثم يعيد ربط تفكيره بالأشجار، متى أجلس تحت تلك الشجرة مثلما أجلس اليوم تحت هذه التي غرستها منذ مدة بيديَّ هاتين؟

_ ألم أقل أنها جنة أنعم بها الله على أبي ومن قبله أجدادي وعليّ حين أورثوني إياها؟

انتهى من عمله في إحدى أمسيات يوم قضاه كعادته في خدمة أرضه، كان سرحا بتعبه اللذيذ يمسح بنظرات عينيه المتلألئة منظرها، لم يعِ لنفسه إلا وصوت ابن جاره يلفت انتباهه وهو يخترق صمته ويتجاوز باب مزرعته ليسلم عليه، بعد تبادل التحية والسلام والسؤال عن الصحة والأحوال طأطأ الشاب رأسه قبل أن يقول:

_ هناك خبر ليس بسار يا عم.

_ خير إن شاء الله.

بعد صمت لا يدري إن كان عليه قول ما جاء لأجله أو تأجيله لأجل غير مسمى، رمقه بنظرة شفقة استجمع قواه ثم استرسل:

_ ستنشئ الحكومة طريقا وطنيا وسيربط بين ولايتنا وولاية.....

_ و أين المشكل في هذا يا بني، منذ الاستقلال والطرق تشق ما الجديد في ذلك؟ قاطعه متعجبا.

_ الجديد، الجديد أن أرضك يا عم هي ضمن التحصيص الذي قامت به الدراسات، والطريق ستمر من هنا... وأشار بسبابته إلى رقعة الأرض.

_ لم افهم، بالرغم من أن كلام الشاب واضح ولا يشوبه أي غموض مبدئيا غير أنه لم يستطع استيعابه.

_ أرضك هذه التي أمامك هي ضمن مشروع ضخم لعمل...

_ أنت تمزح؟ قاطعه كالعادة ليسأله بارتباك.

_ لا، للأسف، كنت أتمنى أن تكون مزحة حتى لو كانت ثقيلة ولكن بصفتي مهندسا فقد اطلعت على المشروع وأردت أن أخبرك من الآن حتى تأخذ احتياطاتك و...

ولكي يصبره بعد أن رأى الدم قد اُمتص من وجهه وأطرافه، وقطرات العرق بدأت تتصبب في غير فصلها، صمت برهة غير بعدها من نبرة الكلام السابق وأردف قائلا: يا عم، ليست أرضك الوحيدة التي ستدخل في مشروع الطريق الوطني هذا، كما أن الدولة ستقدم تعويضات لكل الفلاحين والمستثمرين الفلاحيين أصحاب الأراضي التي سوف تطالها أشغال المشروع...

_ تعويض، تعويض عن ماذا؟، وبدأ صوته يتضخم ويعلو، أي ثمن يمكنه تعويض تتبعي لمسار شجرة واحدة كي أراها تنمو وتصبح بهذا الحجم، أو هذا، أو ذاك وأخذ يهرول بين أشجاره مثل المجذوم، توقف كمن يتذكر شيئا في غاية الأهمية فأمسك بقميص المهندس من الأمام بكل ما أوتي من غضب والدموع قد اكتسحت عينيه:

-أي ثمن يمكنه أن يشتري روحي، هذه الأرض روحي، أتفهم؟ كيف سأعيش بدون روحي؟

اختار المهندس أن يسحب بقايا نفسه "المشتتة حزنا أمام هول المنظر" بعدما أفلته هذا الفلاح الذي لا يحسد على ما ألم به وأسرع الخطى للخروج وهو على يقين بحجم المأساة التي نقلها إليه، أما العجوز المنكسر فقد ارتمى على الأرض كحصان عربي أصيل حضرت كبوته أخيرا، وأخذ يلهث وصوته يعلو انتحابا يشق هدوء الجو...

قرر أن لا يستسلم وأن لا يسلم أرضه وأرض أجداده، قرر أن لا يتنازل عن ماضيه وذكرياته بهذه البساطة، عن أيامه الجميلة، عن رائحة التربة والشجر والثمار والورد أن لا يتخلى حتى عن الأعشاب الضارة التي كانت تزعجه والنمل الذي كان يتسلق شجره والذي كان يبعث الأرق في عينيه كل ليلة ليجعله يفكر كثيرا كيف يقضي عليه، اعتزم أن لا يتنازل عن كل هذا أن يقاتل ويضحي مهما كلفه الثمن.

بعدما قضى ليلة بيضاء التسمية سوداء الفحوى، وبعدما لم تفلح كلمات زوجته الطيبة في التهدئة من روعه ولا ابتداع عبارات تصبره أو تعزيه في مصابه، انطلق مع الصباح الباكر مثقلا بهم لم يكن في الحسبان وبملف أصفر اللون بالي المنظر يثبت ملكيته لهذه الأرض، هذا الملف المخبأ في بيت العائلة منذ أمد لا يدري مدته لم يكن يعلم انه سيخرجه يوما ما وينفض عنه غباره فالكل يعرف أن هذه الأرض مُلكه أبا عن جد، وهي معشوقته قبل كل معشوقة، اليوم يجد نفسه مضطرا لإخراجه من اجل إنقاذ حبيبته ممن يريد اغتصابها بحجة التمدن.

تآكل حذاؤه البسيط في التنقل من مكان لمكان ومن إدارة إلى إدارة لكن دون جدوى، القرار قد صودق عليه بعد دراسة دامت لوقت طويل والأرض أصبحت ملكا عاما بعد أن أعطوه وصلا من أجل قبض تعويض مادي...

بعد عزوف دام طويلا سحب أخيرا بذلك الوصل النقود التي عرف الجميع أنها تعويض عن أرضه غير أنه ضل الوحيد الذي لم يستطع استيعاب نوع التعويض ولا ثمنه الذي يتحدثون عنه.

جلس أولاده ذلك المساء فرحين بذلك الثمن المقبوض والذي سيستغله كل منهم في مشروعه الخاص وكان بين الفينة والأخرى يسمع شظايا جمل وعبارات تصدر منهم تعجبا واستفسارا:

"أيعقل أن تكون أرضنا سخية وذات أهمية لهذه الدرجة حتى تدفع لنا الحكومة مبلغا بهذا القدر؟!"

"ونحن الذين كنا نحسب أنها أرض بلا فائدة، لا تسمن ولا تغني...".

راح كل منهم يخطط ضاحكا مستبشرا فكان ضجيج أصواتهم ولغط فرحتهم يشق صدر ذلك العجوز المسكين الذي هرم وشاخ فجأة، فابيض شعره، وبانت التجاعيد على محياه أكثر من أي وقت مضى.. جلس القرفصاء منفردا بنفسه عند نافذة تطل على معشوقته، وهو يمضغ الوجع ويتلوى من ألم فراق جعل دموع حسرته حبيسة عينين كان نورهما تلك الأرض.